تقنية المسح الوراثي بين بناء الشخصية وهدمها

د. أبراهيم حسين الشريف
قسم الفلسفة
كلية الآداب _ جامعة بنغازي

المستخلص :

المسح الوراثي أحد أنواع التقنيات الوراثية التشخيصية وهو يثير مسائل أخلاقية ذات طبيعة خاصة ، ولامراء في أن العلم أصبح في العصر الحديث أكثر قيمة وتأثيرا في حياة الشعوب بسبب إنجازاته التقنية ، إلا أن الشبهات الأخلاقية التي تثيرها التقنية تسهم في إرباك العلم بانشغالات قيمية جديدة ،لهذا يحاول العلماء توسل إستراتيجيات تقنية بديلة تسهم في تفعيل قيم أكثر إنسانية وتتحسن الطريق الأنسب في مواجهة ما يثيره العلم من إشكاليات.

المقـــدمة :

نحاول من خلال طرح إستراتيجية المسح الوراثي التعرف على طبيعة هذه التقنية ، وتحليل المأزق الأخلاق الناجم عن استخدامها ، وإيجـــاد سبل مناسبة في التعامل معها إلا أن مكمن الخلل لدينا خوضنا في جدل حول قضايا من هذا النـــوع ذات أبعاد أخلاقية تثيرها التقنية الحديثة دون دراية بطبيعة العلم الكافي بهذه التقنيـة ، أحيانا نكتفي بالرجوع إلى إجابات مشوبة بالعاطفة أو إلى هيئـــات علمية نثق دون شواهد كافية في قدراتها على الحسم ؛ ثم لا نجد بعد ذلك غضاضة في الجزم بصحة الموقف الذي نخلص إليه، لكننا على أيه حـــال نسعى إلى اتخـــاذ موقف قيمي من القضايا التي تثيرها التقنية ، حتى تكون المسألة قابلة للنقاش المنفتح ، مع استقطاب المزيد من المعرفة بهذه العلوم الواعدة بالخير للبشرية فيما يعرف بطب المستقبـــل.

تقنية المسح الوراثي بين التوظيف العلمي والخصوصية الشخصية

المسح الوراثي أحد أنواع التقنيات الوراثية التشخيصية ونحنُ على علم تام بأننا مكونون من خلايا ، وكل ما فينا مبرمج جينيا ،يؤدي الجسم وظائفه بطريقة غير مناسبة في حال وجود خلل في المورثات ؛ وبهذا تحدث الأمراض الوراثية عندما تفشل الجنيات في نقل معلومات صحيحة للبروتينات.

ولكن كيف يتكون المأزق الأخلاقي من توفير معلومات عن طريق تقنية المسح الوراثي في أثارة إشكالية ومعضلة إنسانية ؟

تعمل التقنيات الوراثية التشخيصية على تأمين معلومات وراثية تستهدف الكشف عن اختلالا في الجينات داخل الكائن الحي وتعتبر هذه المعلومات بالنسبة للجهات المختصة مصدر ريبه أخلاقية على صعيد السياق المهني خصوصاً لشركات التأمين والنتائج التي نحصل عليها أو قطاعات حكومية فهو يعتبر بمثابة انتهاك صريح الخصوصية الشخصية للملف الشخصي الجيني للإنسان ، الأمر الذي يعرض مستقبل العملاء أو القائمين في هذا الاختبار إلى الخطر كإنهاء التعاقد معهم ، أو عدم توظيفهم أصلا . ونرى أن هذه الطريقة في تعامل الشركات والقطاعات الحكومية مع عملائها أو موظفيها لا تليق بإنسانيتهم ، وبأنها تجعل المسح الوراثي أشبه ما تكون باختبار صلاحية السلع أو معايرة جودتها [1].

من سياق هذا الطرح نسعى إلى توظيف التطبيقات التقنية كالمسح الوراثي في تكريس قيم تحوز منزلة أكثر جدارة بالاحترام على المستوى الإنساني . برؤية أخرى .

قد نقول إن من حق شركات التأمين ، كما هو من حق القائمين على أي مؤسسة اقتصادية أو حكومية الحصول على معلومات وراثية توفرها التقنيات التشخيصية ، عوز مثل هذه المعلومات قد يجعل شركة التأمين تؤمن على حياة أشخاص تتهددهم أمراض وراثية وشيكة ، وقد تجعل المؤسسة الاقتصادية تتعاقد مع أفراد وتنفق الأموال على تنمية قدراتهم الوظيفية ، من دون أن يمهلها موتهم للإفادة من عائدات استثماراتها[2].

يستبان هنا منزلق أخلاقي غاية في الخطورة كون مستقبل المرء الجسدي على المحك ، كونه أصبح كتابا مفتوحاً يطلع عليه الآخرون – هنا نستوعب كيف أن الخالق عز وجل حجب على الإنسان مسألة العلم بالأجل رحمة به ماذا لو تمكنت المسوح الوراثية من كشف تفاصيل الأمراض التي تهدد حياتك بعد عدة سنوات وتؤدي بك إلى الوفاة ، وذلك كله تحصل عليه في قرص مدمج مخزن فيه خصائصك الوراثية وأمراض المستقبلية التي سوف تصاب بها قريب أو مستقبلا ماذا أنت فاعل ؟!

المآزق الأخلاقية التي تثيرها التقنيات التشخيصية الوراثية(المسح الوراثي) :

أن عمليات التقنيات التشخيصية الوراثية عمليات تمس أهم مفهوم ارتبط بالإنسان وجاهد للمحافظة عليه –أعنى "قدسيته" فالإنسان كان من وجهة نظر كل الأديان أقدس المخلوقات ، ولذلك تعتبر حياته أقدس من أن تسلب أو تتعرض للعبث فهل سيحدث ذلك الآن ؟ ألن يتغير معنى القدسية بدخولنا في عصر الهندسة الوراثية والتكنولوجيا البيولوجية ؟[3]

لقد قدمت تقنيات المسح الوراثي بعض الحلول التي لم يكن من السهل الوصول إليها من قبل ، ولكن هناك مخاطر لأبد أن توضع في الاعتبار . كون عدم معرفة الحدود التي يمكن أن يتوصل إليها العلماء في كشفهم عن أسرار الحياةالبشرية – وكشف الأمراض الممكن توقعها على الإنسان في المستقبل القريب ومن هي المؤسسة التي لها الحقفي تقرير ما إذا

كانت تجارب العلماء واكتشافاتهم آمنة أو تحمل طابعا أخلاقيا ؟ وإلى أي حد يمكنلكشفنا وتلاعبنا بالجنيات وتحكمنا فيها أن يؤثر في نظرتنا لأنفسنا وموقعنا في هذا الكون ؟

لقد وجد الإنسان نفسه يتحول إلى مجرد مجموعة من رموز وراثية يمكن عن طريق حلها معرفة تكونيه الوراثي ومن ثم السيطرة عليه . وهذا يعني أن قدسيه حياته وأسرارها أصبحت عرضه لأن تنتهك وهنا سيطرت عليه فكرة أثارت الرعب عند الكثير من المعارضين ، وهي أنه يمكن خرق سجله الوراثي ، وتعرضه للإساء معنوي واجتماعيا، وبالتالي ندخل في المنطقة المحرمة دينيا ، تم إن مصيره ومصير الأجيال القادمة أصبح في يد العلماء ... فهل يمكن أن نسمح باستمرار مثل هذه المسوح الوراثية أم أننا يجب أن نمنعها نهائياً ؟ وهل الفوائد التي سنجنيها من هذا المجال تكفي لتبرير استمراره ؟[4].

من هنا لأبد أن نتساءل : إلى أي مدى بتعين على الفرد أن يحول دون وصول معلوماته الوراثية على أيدي الآخرين ؟ من بين القضايا الأخلاقية التي تنشأ هنا قضية ما إن كان يحق للطبيب أو غيره من العاملين في مجال خدمات الاختبارات الوراثية أن يكشف عن نتائج تلك الاختبارات من دون علم المريض أو رغما عنه إلى طرف ثالث .[5]

والقاعدة الأخلاقية الأساسية هنا لا تختلف عن تلك المتبعة بخصوص البيانات الطبية عموماً ، وهي ؛لا يمكن الكشف عن البيانات الخصوصية المتعلقة بهوية المريض ، من دون تفويض منه ، سوى عندما يلزم حماية الآخرين من الأذى أو عندما يكون الكشف عن تلك المعلومات مفروضا بقوة القانون (مثل إبلاغ سلطات الصحة العامة بنتائج اختبارات فيروس العوز المناعي المكتسب الإيدز) . ويسعى كثير من الدول إلى انشاء " بنوك للدنا " Dnabanks ، تشمل عينات من الحمض النووي لجميع المشتبه بهم في القضايا الجنائية [6].

وكذلك جميع المشاركين في برامج التحري الوراثي بغرض استخدامها في القضايا المتعلقة بالتعرف على الهوية في مجالات الطب الشرعي والبحث الجنائي . لكن أهم الاعتراضات الأخلاقية على التوسع في حفظ المعلومات الجينية للأفراد هو التهديد الذي يمثله ذلك لخصوصية الفرد المعنى (بل وبخصوصية عائلته المقربين)[7].

ويختلف حفظ عينات من الدنا للفرد حفظ بصمات أصابعه امتلاء فبصمات الأصابع تجعل سوى معلومات فرد واحد بعينة ، وهو صاحبها ، أما المعلومات التي تحتوي عليها عينة الدنا فهي أكثر حساسية ؛ لأنها لا تتعلق بالشخص المعنى فحسب ، بل إن لها تأثيرا في أقاربه الذين يرتبط معهم بعلاقة دم .[8]

وفيما يتعلق بالحق في الخصوصية الجينية ، من الممكن تحديد أربعة مكونات لذلك ، وهي

1- الحق في خصوصية المعلومات (التي تتضمن حقوقا فرعية فيما يتعلق بالسرية Confi-dentiality وعدم ذكر الاسم Aninymity

2-حق الفرد في التحكم في الولوج الملموس إلى جسده.

3-الحق في التحكم الشخصي والانتقائي في استخدام الخدمات الوراثية .

4- الحق في المحافظة على الحقوق الحصرية فيما يتعلق بخصوصية جينات الفرد.

وقد جادل البعض بأن الدنا يشبه دفتر يوميات مستقبليا " لأنفسنا (لأنه يحتوي على المعلومات المتعلقة بحالتنا الصحية الحاضرة والمستقبلية)، ولذا فإن حقنا في حمايته من " القراء " غير المرغوبين يعد أمرا حتميا من أجل المحافظة على سيطرتنا التامة والمستقلة على المعلومات الشخصية والحساسة لكل منا [9].

أين تقودنا تقنية المسح الوراثي :

تقنية المسح الوراثي أداة قوية للمستقبل نستطيع أن نوسع مجال معرفتنا ، وتساعدنا على تخطيط استراتيجيات تعطي فرصا أفضل للعيش في صحة ، فالمسح الوراثي له القدرة على تغيير طريقة حياتنا ، فهو يميلىء علينا أولويات جديدة بالنسبة البعض من أهم القرارات الرئيسة التي يجب علينا اتخاذها – قرارات عن المهنة التي نختارها ، والمكان الذي نعيش فيه ، والشخص الذي نتزوجه ، فهو باختصار ينفذ إلى الصميم من حياتنا[10].

لكن يجب أن تكون على حذر دائم من مثل هذا النوع من القوى العلمية في رحاب مجتمع غير مهيأ لذلك . فلا نتوقع ما يمكن أن يحدث عندما يكتسب ذلك المجتمع القدرة على فعل شيء ما واستخدامه قبل أن يفهم كل مضامنية والآن فإننا نتقبل عموماً قاعدة رئيسة يبدو أنها مما يلازم تقريبا كل تطبيق للحلول العلمية لمشاكل المجتمع ، وهذه القاعدة هي أنه : كلما زادت فرصة وجود ما يفيدنا زادت أيضا إمكانات إساءة استخدامه [11].

ونحن الآن نواجه ثورة غير عادية في طريقة توفيرنا للرعاية الصحية ، فنحن على شفافهم أصدق لطبيعة المرض . ونحن نشهد تحولا هائلا بعيد عن نظرية التشديد على علاج المرض بعد وقوعه ، واتجاها إلى نظرية توفي المرض قبل حدوثه ، والمسح والفرز الوراثي هو في الطليعة من هذه الحركة ، على أنه يتضمن نصيبه من المخاطر .

وإذا لم نتوخ الحرص ، وإذا قصرنا نظرتنا على ما يستطيع المسح الوراثي أن يفعله لنا وليس إلى ما قد يفعله بنا فقد يضيع منا الطريق فننسى الدور الذي قامت به الوراثيات في الماضي ، ولو أننا تجاهلنا ما وقع في ألمانيا النازية من صراعات ، وحركة تحسين النسل ، والتاريخ العرقي للولاية المتحدة ، فسوف نكون مدانين بأننا نستخدم المسح الوراثي في فراغ ، ومدنين بأننا فشلنا في أن نأخذ بعين الاعتبار المشاكل الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والمعنوية التي تؤثر في تناول كل قوة جديدة في كل مرة يلتقي فيها العلم بالمجتمع [12] ومن المؤكد أن آثار المسح الوراثي ستكون آثار واسعة الانتشار ، وما لم نسيرها قبل أن تحكم قبضتها فإننا بذلك نكون في الواقع كمن يضمن وقوع إساءة استغلالها.

دور الفلسفة في الحكم على القضايا التقنية :

يري فلاسفة العلم أنه لا يمكن حسم القضايا القيمة التي تثيرها التقنيات المعاصرة حسما يوصد الباب في وجه المؤيد من التقصي ، ويصادر حق الأجيال القادمة في الإسهام في حلها ، نستطيع التعرف على طبيعة هذه التقنيات ، وتحليا المآزق الأخلاقية الناجمة عن استخدامها . من منحى آخر بتعين الأنعنى في هذا السياق الفلسفي بتبني موقف محدد من المآزق الأخلاقية قدر عنايتنا بتوضيحها ، وتبيان " الحقائق" التي استندت عليها ، وعرض المواقف التي اتخذت منها ، وكشف الثغرات التي تعاني منها المواقف المتخذة . إن من شأن تناول المشاكل الأخلاقية على هذا النحو أن يسهم في فضح الافتراضات التي نصادر عليها ، والتي تفعل فعلها في مواقفنا الأخلاقية بحيث يتسنى لنا الدفاع عنها ، أو التنصل منها ، أو تعديلها .[13]

ذلك أنه غالبا ما تعون مواقفنا مشحونة بأحكام لا نعيها . رغم أن الاختلاف في المواقف قد يتعين مأتاه في خلاف حول هذه الافتراضات الضمنية .

يتسق هذا مع المواقف السائد الآن في علم الأخلاق . لم تعد نتاجات هذا العلم قائمة أحكام أشبه ما تكون بالفتاوى الدينية بل إذا غدا معنيا أساسا بتنمية الوعي الأخلاقي والتفكير الناقد في المسائل القيمية ، هكذا يقر إزيابرلن أنه " ليس منشأن فيلسوف الأخلاق أنيلزم

الناس بأي مواقف ، بل من واجبه أن يوضح لهم القضايا والقيم المتضمنة ، وأن يعاين البراهين التي تطرح لدعم مختلف النتائج أو مناهضتها ، وأن يبين شكول الحياة المتعارضة ، وأن يحدد غايات الحياة البشرية المتنافسة والثمن الذي يتعين دفعة نظير كل منها .[14]

هذا يعني أننا في الوقت الذي نحجم على المستوي النظري (الفلسفي) عن تبني مواقف محددة من التقنيات الوراثية، ونكتفي بعرض وتقويم مبررات أشياعها وخصومها ، فإننا لا ندعو إلى الإحجام عن تبني مواقف عملية (برجماتية) ، أقله بحسبان أن تعليق الحكم قد يعبر عن تبن مريح لمواقف الخصوم ، ولأنه من خصوصيات المسائل الأخلاقية أنها تشكل مآزق ، بمعنى أنها تعرض بدائل يعاني كل منها أختلال اتلامناص منها ، يتعين ألا نفترض أن الموقف الذي نتبنى يشكل الموقف الصحيح أو الوحيد ، فمجرد كون الخلاف قيميا يتعارض أصلا مع الزعم بصحة أو وحدانية أي موقف أخلاقي .[15]

من منحي آخر ، فإن القول بأن الدين يحسم القضايا الأخلاقية في مجتمعنا يجب ألايثنينا عن نقاشها ، فمن جهة ينبغي أن يكون هناك سياق تناقش فيه مثل هذه المسائل دون افتراض أي خصوصيات ثقافية ، بحيث تكون موضعا للتداول على المستوى الإنساني .

ومن هنا فإن الخطاب الديني لا يحسم حقيقة كل القضايا الأخلاقية، وهذا يصدق خصوصاً على القضايا التي تثيرها التقنيات الحديثة التي لا عهد للأسلاف بقدراتها الفائقة ، إن مبلغ ما يتسنى لهذا الخطاب إنجازه في مثل هذا السياق هو القياس ، والقياس يظل من حيث المبدأ عرضه للتشكيك ، خصوصاً في حالة التقنيات الوراثية ، لأن التماثل بين الحالة المقاس بها والحالة المقاس عليها غالبا ما يقصر عن التمام .[16]

الخـــــــاتمة

يجب أن نعلم أن التطور في مجال تقنية المسح الوراثي وصل إلى مستــوي يسمح بأن يستفاد منه في الوقاية والكشف والعلاج لأمراض كثيرة ، لكن يبـــدو أن هذا التطور التقني ، كأي تطور تقني آخر ، يمكن أن يكون سلاحا ذا حدين ، خاصة إذا استخدمت هذه التقنيات الجديدة في مجال تقنية المعلومات الطبية ضد رجـــال السياسة أو شخصيات عامة أو حالات اجتماعية ذات طابع خـــاص ، فالأخــطار الحقيقية من تطبيق ما نحصل عليه من المعلومات ، ومن الطريقة التي قد يساء بها تفسير واستغلال المسح الوراثي للناس يحتم علينا توخي الحرص لما قــد يفعله بنا هذا العلم وتلك التقنية ، إذا لم نحكم تماماً قبضتنا ، فإننا كمن يضع سجل تاريخيــه الوراثي للإساءة من قبل الآخر.

الهـــــــوامش

1-عبد الباسط الجمل ، الجينوم والهندسة الوراثية ، سلسلة الفكر العربي للتنوير العلمي ، العدد 2 ، دار الفكر العربي ، 2001، ص 183.
2- نجيب الحصادي ، قيمية العلم – المسوح الوراثية نموذجا – مجلة عالم الفكر مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت أكتوبر – ديسمبر – المجلد 35، 2006ص 587.
3- أيهاب عبد الرحيم محمد ، الإطار الأخلاقي لأبحاث الجينوم والهندسة الوراثية البشرية ، مجلة عالم الفكر ، مجلة محكمة تصدر من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – المجلد 35 أكتوبر – ديسمبر، العدد2 ، ص 272.
4-المرجع ذاته ، ص 272.
5-Maxwel.j.Mehiman.The Privacy of Genetic In formation.October 1999.Published online at.
(www.the doctor will see you now .com).
6-Omphemetse Mooki .DNATyping as a Forensic Tool:Applications and Implications for Civil Liberties.South African Journal on Human Rights vo 13 (1997) .P.565.
7- ايهاب عبدالرحيم محمد ، الإطار الأخلاقي لأبحاثالجبيوم والهندسة الوراثية البشرية ، مجلة عالم الفكر ، مرجع سبق ذكره ،ص 274.
8-المرجع ذاته ، ص 274.
9-المرجع ذاته ، ص 275.
10- زولت هارسنياي ، ريتشارد هتون ، التنبؤ الوراثي ، مصطفي إبراهيم فهمي مختار الظواهري ، سلسلة عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – العدد 130- أكتوبر – تشرين الأول سنة 1988 ص 261.
11- المرجع ذاته ، ص 262.
12- المرجع ذاته ، ص 263.
13- نجيب الحصادي ، قيمية العلم – المسوح الوراثية نموذجا – مجلة عالم الفكر مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والقنوت والآداب – الكويت أكتوبر – ديسمبر – المجلد 35،2006، ص 582.
14- المرجع ذاته ، ص 383.
15- المرجع ذاته ، ص 383.
16- المرجع ذاته ، ص 384.